مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٢، العدد ٤، شتاء ١٤٣٨ هـ
صفحة ٥٨٧- ٦٠٨

Print ISSN: 1735 -9767
Online ISSN: 2423 – 6187
jal-lq.ut.ac.ir

السخرية وحقولها الدلالية في الشعر العراقي المعاصر أحمد مطر نموذجا

محسن خدامي[١*]، محمد جنتي فر[٢]

١. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية، قم
٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية، قم

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٦/٩/١٣؛ تاريخ القبول: ٢٠١٧/٣/١١)

الملخّص

عندما ندرس الشعر العراقي المعاصر وتطوره نجد شعراء كثيرين على الخارطة الشعرية العراقية وظّفوا موهبتهم الشعرية سلاحاً لحماية تطلعات الشعب العراقي ونضاله ضد الحكام الجائرين وضد المحتلين. فالشاعر العراقي "أحمد مطر" من أبرز شعراء المقاومة الذي يعتبر شخصية ثقافية ونضالية من طراز رفيع وله آراء هامة حول الوطن والحكم والسياسة. تأثّر الشاعر من القرآن وألفاظه ومعانيه بشكل خاص وهذه القضية واضحة في أساليبه الشعرية. فقد دافع عن وطنه وقد تعرض لعذابٍ ومحن وغربة في سبيل الوطن. فكانت قصائده وأسلوبه الساخر ردّة فعل عنيفة وصرخةً حيةً ووهجاً حاداً ونقداً لاذعاً في كثير من الأحيان ضد النظام البعثي وممارساته القمعية وإفشاء مؤامرات السلطات الحكومية والمخبرين والقوى السريين والأجانب. فهذه الدراسة التي اعتمدت على المنهج الوصفي- التحليلي تهدف إلى معالجة مفاهيم السخرية وحقولها الدلالية في شعر "أحمد مطر" والعمل على تبين أسلوبه الساخر واللاذع في معالجة قضايا المجتمع العراقي وتبين مدى أثرها في إيقاظ وعي المواطنين في محاربة الطغيان ومجابهة الاستبداد ومحاربة التناقضات والجهل والشعارات الزائفة ورفض الواقع المزري.

الكلمات الرئيسة

السخرية، أحمد مطر، الشعر السياسي، الشعر الاجتماعي، الحقول الدلالية.

---

* الكاتب المسؤول
Email: khodami.mohsen@yahoo.com

مقدمة

يعد الشاعر أحمد مطر في خانة الشعراء السياسيين وشعراء المقاومة، له الأسلوب الخاص الذي يميزه عن الشعراء الآخرين. تأثّر الشاعر من القرآن وألفاظه ومعانيه بشكل خاص وهذه القضية واضحة في أساليبه الشعرية المتنوعة، يستخدم كل هذه الأساليب ليبين اعتراضه وتذمره من وضع مجتمعه المرير وكبت الحريات سواء الحرية الاجتماعية أو حرية التعبير. يمتلك أحمد مطر روح السخرية والفكاهة، وقد انعكست هذه الروح في شعره، فنراه تارة يسخر من النظام البعثي وزعماء العرب، سخرية فيها استنكار ورفض لحالهم. لقد وجد "أحمد مطر" أن خير وسيلة للتعبير عن الحزن الذي يعتصره هو السخرية والتهكم، فهو يفضح الحكام ويضحِك الناس عليهم بالشعر، فسخريته مستمدة من الواقع المعاش، وقد لجأ الشاعر إلى هذا الأسلوب لمعرفته أن السخرية لها قوة في التأثير، وإثارة للانتباه. يمتاز شعر أحمد مطر بسخرية لاذعة جريئة عذبة الصياغة... فكلماته الخفيفة وشعره المختزل مع الجرأة والحرية التي امتلكها جعلت حروفه من ذهب... ولذلك من المهم لأي كاتب ساخر أو هازئ في مجال الكتابة الساخرة إن أراد تطوير كتاباته الساخرة مطالعة قصائد أحمد مطر التي يغلب على معظمها السخرية فهو مدرسة في السخرية البناءة الجريئة التي توصل رسالة واضحة وصريحة في كل قصيدة يصوغها بحرفه الجميل الرشيق.

درسنا في هذا المقال النزر اليسير من قصائده الفكاهية الساخرة التي تبين قدرة الشاعر وبراعته على نظم الشعر في شتى الجوانب الشعرية، فالقصائد التي استخدم السخرية والفكاهة فيها كثيرة، جلُّها انصب في الجانب السياسي، وخالطته روح المعاتبة لبني قومه، فالشاعر يستعمل السخرية تنفسيا وتعبيرا عن مرارته. فالهدف الّذي حاولت الوصول إليه في هذا المقال هو دراسة الشعر الساخر عند أحمد مطر وتحديد مجموعة من السمات الأسلوبية التي تميز بها أسلوب الشاعر. وفي هذا الصدد طرحنا بعض الأسئلة ومن تلك الأسئلة مايلي:

١. أحمد مطر يستفيد من أي أساليب في أشعاره؟
٢. لماذا لجاء الشاعر إلى توظيف السخرية في شعره؟
٣. ما هي الحقول الدلالية التي طرقها الشاعر عبر السخرية والتهكم؟

الدراسات السابقة

قد شغلت أشعار أحمد مطر حيزاً واسعاً من الدراسات منها: دراسة أحمد غنيم، كمال، *عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر (نقد)*، ومقال الالتزام في شعر أحمد مطر، للباحث عبدالحميد عبدالغفور. ومقال العملية الابداعية من منظور تأويلي لاحمد مطر، للباحث عبدالرفيع الهندي، ومقال الحكاية الساخرة في أدب احمد مطر، للباحث حامد بكري ومقال التوظيف القرآني في شعر أحمد مطر، للباحث حافظ كوزي عبدالعال ومقال المفارقة في شعر أحمد مطر، للباحثة انتصار جويدان عيدان، ومقال اساليب السرد القصصي ووسائله في شعر احمد مطر، نجوى محمد جمعة. ومقال، أساليب استخدام السخرية في التصاوير الفكاهية لأحمد مطر، للباحث يحيى معروف ودراسات نقدية أخرى تناولت شعر أحمد مطر يطيل المقام عن ذكرها.

السخرية ومفهومها

تمثّل السّخرية فنّاً رائعاً من الفنون الإنسانية الّتي تعبّر عن تطّور المجتمعات البشرية عبر التاريخ. السخرية صفة في العمل أو في الكلام أو في الموقف أو في الكتابة الّتي تثير الضحك لدى القرّاء وهي «في الشعر طريقةٌ تعبيريةٌ منظوره، توسل بها الشعراء لنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية والسير الفردية ونيل منها بأسلوبٍ يترفع عن الشتيمة والسباب المحض ويتنزه عن القذف والإيغال في الفحش ورفث القول» (التميمي، دون تا: ٣٥). يعتبر عباس محمود العقاد أوّل من تحدّث عن ملكة السخر عند المعرّي، ألّف الدكتور شوقي ضيف كتابة "الفكاهة في مصر" وهناك مولفون آخرون ألفّوا كتباً عديدةً في مجال السخرية والفكاهة والضحك وأخيراً الدكتور نعمان محمد أمين طه ألّف كتاباً سمّاه "السّخرية في الأدب العربي حتى النهاية القرن الرابع الهجري" وإذا أردنا أن ندخل البحث لابدّ أن نشير إلى معنى السخرية لغة واصطلاحاً.

السخرية لغة واصطلاحاً

السخرية هي الاستهزاء، نقول: سخر منه وبه ورد في لسان العرب سَخِرَ منه وبه سَخراً وسَخَراً ومَسخَرَاً وسُخراً و... هزئ به والاسم سخرة وسخريا وسخرية. وقد وردت في القرآن الكريم بلفظة السخرية في أربعة عشر موضعاً كما نقرأ ﴿**إن تَسخَرُوا مِنّا فَإنّا نَسخَرُ مِنكم كما تَسخَرُون**﴾ (هود/٣٨) هنالك تعاريف عدّة للسخرّية، والتعريف المقترح للدكتور نعمان طه هو:

«لونٌ هزليّ أدبيّ موجّه، يقوم على النقض المضحك أو التجريح الهازئ، معتمداً على أساليب ووسائط فنيه مختلفه وغرض الساخر هو النقد أولا والإضحاك ثانيا وهو تصوير الإنسان تصويراً مضحكا إما بوضعه في صورةٍ مضحكة بواسطة التشويه أو تكبير العيوب الجسمية أو العضوية أو الحركية أو العقلية أو ما فيه من عيوبٍ حين سلوكه مع المجتمع وكل ذلك بطريقة خاصة غير مباشرة» (طه، ١٩٧٨: ١٠).

وللسخرية ألفاظٌ مترادفة بمعنى السخرية كالفكاهة والتهكم والاستهزاء ولمتحاول التّفريق وقد تركت أيضاً المعنى العام الّذي شمل السخرية وغيرها بدون تعريف يقَرِّبه من الأذهان. هناك تداخلٌ بين معاني هذه المصطلحات المتقاربة، بعض المهتمّين بالأدب يعتبرون السخرّية لَوناً من ألوان الفكاهة وبعضهم يحسبون أنّ الفكاهةَ جزءٌ من أجزاء السخرية امّا الحوفي في كتابة "الفكاهة في الأدب، أصولها وأنواعها" يعتبر كلّها فكاهة؛ لِأنّه يريدُ بالفكاهةِ كل باعث على الضّحك ولو اختلف الإسم ويمكن القول أنَّ كلتا النظريتين غير دقيقة لأنّ الفكاهة شيء والسخرّية شيء آخر. ويبدو أنّ منشأ الخلط بينهما يعود إلى النظر إلى "الضحك" بصفتِهِ الغاية الكبرى والأساسية من الفكاهة والسخرية على حد سواء. «الفكاهة من معانيها في اللغة المزاح، والرجل الَفكه هو الطيب النّفس المزّاح والإسم الَفكيهَة والفكاهة... والغفلة والتغافل والتناقض والتخلّص الفكه والدعابة والمزاح والهزل والتهكم والسخرية... كلّ منها فكاهة اذا كان مثيراً للضحك، لأنني أريدُ بالفكاهة كل باعث على الضحك من فنون القول، وإن اختلف الاسم» (الحوفي، ٢٠٠٥: ٨-٧).

ولا ينكر أحدٌ الصلةَ الوثيقة بين السخرية والفكاهة؛ لأنّ الضحك أو الإضحاك يولَد من أيٍّ منهما. إنّ الضحك المنبعث من الفكاهة ضحك سارٌ ومُبهج، لكنّ السخرية مؤلمة موجعة ولو انبعث منها أو معها الضحك فإنّما هو ضحك حارٌّ يقترب من البكاء. ويضيفُ الحوفي أنّ السخرية شعورٌ عميق ينبعث من اعماق الانسان بينما الفكاهة ضحك سطحيٌ وعارضٌ. الضحك والمضاحكة سلوك اجتماعي والسخرّية ظاهرةٌ فردية ترتبطُ بموقف الفكري للانسان تِجاه ما يشاهده في المجتمع. فالسخرية في مصطلحها الأدبي هي «محاولة إعادة النظر للأشياء بصورة مختلفة، أيضاً يمكن أن تضفي السخرية على بعض الأشياء كثيراً من المبالغة، هذه المبالغة الّتي لا تراد لذاتها بل لتلفّت الانتباه ولتميزها عن سواها، وأحياناً تصوّر الأُمور بشكل ظاهره الضحك وباطنه النقد والتنبيه...» (جاسم الحسين، ١٩٩٧: ٤٧).

«تختلف أغراض الشعراء من ممارسة السخرية، فنرى فريقاً منهم يلجأون إليها بهدف التلهّي والضحك ودفع السآمة والملل ورفع كابوس الهم والحزن وإبعاد النفس عن الحياة الرتيبة، بإطلاقها من أسر الجد وإصطباغها بصبغةٍ هزليةٍ... إلا أنّ فريقاً آخر من الشعراء وعوا مسؤوليتهم الاجتماعية وموقعهم المميز فأشاروا إلى مواضع الفساد والافساد والتزلف والجهل وغير ذلك بهدف اصلاح المجتمع والقضاء على مظاهر الفساد فيه...» (طالبي وآخرون، ١٤٣٤: ٧٨).

«فالسخرية جرأة على الواقع وأحياناً تعبر عن عدم التطابق بين المأمول والواقع وقدتنتج عن تباين الأساليب والرؤى وأحياناً يكون الشغل على الشخصية فقد تأخذ بعض الحالات الغريبة الّتي تجعلها أكثر اقتراباً من الواقع...» (طالبي وآخرون، ١٤٣٤: ٥٣). السخرية هي إحدى وسائل نقد الواقع وأنّ الإنسان إنما يلجأ اليها ليعالج نواقص مجتمعه عن طريقها وهي في الأدب لون صعب الأداء لما يتطلبه من موهبة خاصة ويمكن القول بأنّ السخرية هي النقد الضاحك أو التجريح الهازئ وغرض الساخر هو النقد أوّلاً والإضحاك ثانياً.

"الغرض الأساسي من السخرية ليس الإضحاك، والأديب الذي يستخدم هذا النوع ينتقد الناس والمجتمع، ولكن في شيءٍ من الحياء والتحفّظ، وتكون لديه القدرة، على كشف النفس البشرية...» (السطوحي، ٢٠٠٧: ٥٢). «والباعث الأساسي للسخرية هو مناقضة رأي المجموع أو ذوقه، وقد تكون نابعة عن حساسية الناقد نفسه، فهو يكون ذاعينٍ بصيرة نفّاذة، يحسّ نقائص المجتمع، ثمّ يكون ذا روح مرح ضاحك يتناول العالم وما فيه تناولاً بأساليب السخرية المختلفة، يقصد من وراء ذلك الإصلاح...» (طه، ١٩٧٨: ١٧).

فالسخرية سلاح أقوى من السَّبِّ أو الضرب أو العراك. إنّ هذه الوسائل البدائية السالفة الذكر وسائل الانسان الضّعيف الحيلة وتدلّ على انهيار الشخص النفسي لما حدث له من خصمه، تقدم السخرية صورة هجائية عن الجوانب القبيحة والسلبية للحياة، كما تصوّر معايب المجتمعات ومفاسدها، وحقائقها المرّة بالمبالغة الشديدة، حيث تظهر تلك الحقائق أكثر قبحاً ومرارة لتظهر خصائصها وميزاتها بشكل أكثر وضوحا، ولتجلّي التناقض العميق بين الوضع الموجود والحياة الكريمة المنشودة.

«فالسخرية ماكان ظاهره جد وباطنه هزل، وطريقة السؤال عن شيء مع إظهار الجهل به، وان تلقي على محدثك ـ بعد التسليم بأقواله ـ أسئلة تثير الشكوك في نفسه حتى إذا انتقل من قول إلى قول أدرك ما في موقفه من التناقض واضطر إلى التسليم لجهله» (صليبا، ١٩٧٨: ج١/٣٠٦).

فالسخرية إذاً لا يمكن أن تكون هي النكتة أو المزاح ولا هي التهكم ولا الهجاء ذاته ولا هي الفكاهة وحدها بل هي شيء أسمى من ذلك، إنها «رد الإنسان الأعظم على معاكسة القدر، وظلم الدهر، وقسوة الطبيعة أو عيوب المجتمع، ونقائص الناس، وهو يسخر من هذه جميعا، ولا يسبها ولا يحقد عليها بل يتأملها بهدوء ويبصر سخافتها وتناقضها وتفاهتها وصغرها، فيعلو عليها جميعا ويتحدث عنها بابتسامة هادئة جميلة مستخفة هازئة وينبغي أن لايكون حديثه سيء اللفظ بذيئا، ولا يكون ثائرا وإلا كان سخرا، فالسخرة والهدوء التام والأدب التام والعلو التام عن مصائب الدنيا» (النويهي، ١٩٦٩: ٣٣٢).

السخرية في القرآن الكريم

وقد بين لنا القرآن الكريم ان السخرية عمل مكروه، إذا كان فيه تطاول واستخفاف فقد نهى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن هذا اللون من السخرية وقال في سورة الحجرات ﴿**يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا لايَسخَرُ قَومٌ مِن قَومٍ عَسى أن يَكُونُوا خَيراً مِنهُم وَلا نِساءٌ مِن نِساءٍ عَسى أن يَكنَّ خيراً مِنهنَّ**﴾ (الحجرات/٢١) وقد وردت السخرية في القرآن الكريم بألفاظ: "الهزء" والاستخفاف والضحك والسخرية. وجاءت بلفظة "السخرية" ومشتقاتها في ستّة عشر موضعاً.

الاستهزاء والسخرية وردت في القرآن بأربعة أشكال: استهزاء الكفّار بالنبي، استهزاء الكفّار بالمؤمنين واستهزاء الكفّار بالآيات والمعجزات واستهزاء المنافقين بالمؤمنين.

واستخدم القرآن أساليب عديدة للسخرية منها: التهديد بلفظ التبشير ﴿**بَشِّرِ المنافِقينَ بأنَّ لَهم عَذاباً أليماً**﴾ (النساء/١٣٨) واستخفاف العقل ليرجع الضالّ يمن ضلالَته؛ ﴿**قُل تَمَتَّع بِكفرِك قَليلاً إنّك مِن أصحابِ النّارِ**﴾ (الزمر/٨).

والتهديد بلفظ التهكم: ﴿**ذُق إنَّك أنتَ العَزيزُ الكريمُ**﴾ (الدخان/٤٩).

والاستهزاء بالتشبيه والتمثيل: ﴿**كأنَّهمُ حُمُرٌ مُستَنفِرَة فَرّت مِن قَسوَرَة**﴾ (المدثر/٤٧) وبالهمزة الاستفهامية: ﴿**أصَلوتُك تَأمُرُك أن نتَرُك ما يعبُدُ آباؤنا**﴾ (هود/٨٧).

السخرية في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث

وإذا حاولنا دراسة "السخرية" في الشعر العربيّ فيحسن بنا أن نلتزم المنهج التاريخي، فنشير إليها إشارةً عابرةً في الأدب العربي.

ولَو بحثنا في الشعر الجاهلي لوجدنا نماذج للسخرية وإن كانت قليلة، الشاعر الجاهلي لم يعرف السخرية أو قلّما عرفها. لأنّ السخرية لم تكن عميقة الجذور في الشعر العربي كلّه، بل كانت ظاهرة مؤقّتة. أمّا الأمثلة الّتي تدُلّ على سخرية الجاهلين، فهي قليلة منها هجاء زهير بن أبي سُلمَى في آل حصنٍ، قائلاً:

وما أدري وسوف إخال أدري أقومٌ آلُ حصنٍ أم نساءُ؟
فَإن قالوا النساءُ مخبئاتٌ فحقٌ لكل محصنةٍ هداءُ

(ديوان، ١٩٦٤: ١٢)

أما في العصر الإسلامي فقد استخدمت السخرية غالباً من جانب المشركين لِأنّهم المنهزمون عقليا وروحيا، من جهة أخرى، فقد أصيب الشّعر عامّة في العصر الإسلامي بركودٍ بعد ازدهاره في أواخر العصر الجاهلي وقد وردت في كتب تواريخ الأدب آراء عديدة في اسباب هذا الركود الّذي حَلّ بالشّعر، منها انصراف الأذواق عن الشّعر وانشغالها بمعاني القرآن وسحر بلاغته بما حمل من فوائد عقلية ومتع فنية. رأي آخر يقول: إنّ المشركين قد ادّعوا بأنّ القرآن هو كتاب شعر والنبي رجل شاعر وهذا الأمر قد أدّى إلى تقبيح أمر الشعر والشعراء وقد ورد في القرآن الكريم ﴿**والشُّعراءُ يتّبِعُهُم الغَاوونَ، ألم تَر أنَّهم في كلّ وادٍ يهيمُونَ، وأنَّهم يقولونَ مَا لا يفعَلُون**...﴾ (الشعراء/٢٢٤-٢٢٦). وفي العصر الأمويّ كثُر الهجاء بين شعراء النقائض ـ جرير، الأخطل والفرزدق ـ ونحن حينما نتناول الهجاء نقصد بذلك الهجاء الساخر الذي يحمل الوخز واللّذع والتهكم مصاحباً الضحك، الّذي ينال من المهجوّ بشكل غير مباشر ونذكر مثالاً ساخراً في هذا العصر، ذلك قول الأخطل في إحدى نقائضه:

ما كنتُ أحسبُ أنّ الدُخنَ فاكهةٌ حتّى مررتُ بوادي آلِ عمارِ
قومٌ إذا استنبحَ الأضيافُ كلبَهمُ قالوا لأُمهم بولي على النارِ

(ديوان، ١٩٩٥: ٢٢٧)

أما العصر العباسي فازدهرت فيه السخرية وتنوّعت أشكالها ومواضيعها ومن التطوّرات الجديدة الّتي دخَلت هذا الفن اتّجاهه ناحية شخصية في الغالب وتناولة الفرد باعتباره فردا في المجتمع.

والسخرية في الشعر العباسي كانت تستخدم في الأغلب للبعث والتسلية، فكان الشاعر لا يحمل الغضب والنقمة المرّة بل هدفه اللهو والإضحاك.

ومن أشهر شعراء الذين استخدموا أسلوب السخرية هم أبو نؤاس وابن الرومي وبشار بن برد...

وكل عصر يحتاج إلى السخرية لاسيما العصر المعاصر وما أكثر المصائب والنكبات السياسية والاجتماعيّة والاقتصادية الّتي أُبتلي بها أبناء هذا العصر فانعكست على لسان الأدباء.

وكثُر في الشعر المعاصر السخرية السياسية فقد كانت مفارقات الأوضاع السياسية في الشرق العربي سبباً في إثارة الأشعار الساخرة عند الشعراء وأصحاب الفكاهة وكانوا يعالجون هذه المناقضات السياسية بروح فكهة ساخرة في اشعارهم، كما ورد في شعر نزار قبّاني كثيرٌ من مواقفه السياسية بأسلوب ساخرٍ حيث ينتقِد مِن الجواسيس في البلاد العربية ويسمّيهم كلاب السلاطين:

> لَو أحدٌ يمنحني الأمان/ لو كنتُ أستطيعُ أن أقابلَ السلطان قلتُ له:/ يا سيدي السلطان!/ كلابُك المفترساتُ مَزَّقت ردائي ومخبروك دائماً ورائي/ عيونهم ورائي/ أقدامهم ورائي/ يستجوبون زوجتي/ ويكتبون عندهم/ أسماء أصدقائي... (قباني، ١٩٩٣: ١٧٥)

تُمَثِّلُ أشعار نزار قبّاني ذروة الاتّجاه الساخر الذي أصبح من سمات هذا العصر، ففي النصف الأوّل من القرن المنصرم سجّلت القصيدة السياسية ذات الاتجاه الاستفزازي الواخز حضورها الأوّل وفي النِّصف الثّاني من القرن نفسه ارتفع صوتها عالياً بعد أن أدرك الشعراء أهميتها بوصفها خطاباً سياسياً بعيد التأثير.

السخرية في الشعر العراقي المعاصر

ما أكثر الهموم والمشاغل الّتي يواجهها الانسان في الحياة وقديماً قالوا "شرّ البلية ما يضحك" وما أكثر المصائب والنكبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الّتي ابتلي بها أبناء هذا العصر فانعكست على لسان الأدباء، ففي العراق وتحديداً بعد الحرب العالمية الثانية كان الوضع السياسي قاسياً جدّاً، وكان الشعر الساخر «نتيجة لسياسات الأنظمة الحاكمة من فقدان الأمن وتسلّط الدكتاتورية وكان من الطبيعي أن يرافقَ الشاعر في تعبيره هذا موجات من الغضب والعنف والسخط، فالكبت وانعدام الحرية وتكميم الأفواه والحاكم والمحكوم والجوع والتفاوت الطبقي كانت الباعث على قول الشعر الساخر، الساخط على تلك الأنظمة وسياستها التعسفية، فكان هذا الشعر متنفّس الشعراء الّذين تشكلوا عبر جبهة معارضة لنظام الحكم وفساد السياسة» (الكعبي، ٢٠١٢: ١٢٨).

والشعراء العراقيون استخدّموا كثيراً من السخرية في موضوعات السياسية والاجتماعية في القرن العشرين. يقول معروف الرصافي في قصيدة "الحرية في سياسة المستعمرين":

يـــــا قـــــوم لا تتكلّمـــــوا إنَّ الكـــــــــلامَ مُحَـــــــــرَّمُ
نـــــــاموا ولا تســــــــتيقظوا مـــــا فـــــازَ إلّـــــا النُّـــــوّمُ
وتـــــأخرّوا عـــــن كلّمـــــا يقضـــــي بـــــأن تتقَـــــدَّمُوا
ودعـــــوا الـــــتفهّم جانبـــــاً فـــــالخيرُ ألّـــــا تفهمُـــــوا...

(بدوي، ١٩٦٩: ٣٠)

ويقول "عبدالوهّاب البياتي" وهو من روّاد الشعر الحّر:

أجنَحة الشاعر في بلادنا جليد/ تذوبُ إن طارَت إلى البعيد/ قبّعة الثَّلجِ عَلى (صنين)/ تُحرِقها الشَّمسُ/ فَلا يبقى سِوى الرّماد يكفّن الحقول/ ويغمُر الوديانَ بالذّهول... (البياتي، ١٩٩٥: ١٣)

وإن أردنا أن نذكر عدداً من الشعراء العراقيين في العصر الحديث الّذين عُنوا بالسخرية نستطيع أن نذكر الجواهري وأحمد الصافي النجفي ومظفر النّواب وأحمد مطر و... وقد إتخذ أحمد مطر السخرية أسلوباً لشعره فتجلت في كل شعره وأصبح طابعه في كل جوانبه وهو في قالب الشعر الحر. وقد استطاع الشاعر أن يستخدم ألوان السخرية بغزاره لاسيما في المجال السياسي. فالسخرى عنده سلاح هجومي لا يخرق الأعراف ولا يتحدّى القوانين إذا أحسن إستخدامه ظاهراً أو باطناً في عباراته.

أحمد مطر سيرته الذاتية والعملية

وُلِد أحمد مطر في مطلع الخمسينات، ابناً رابعاً بين عشرة إخوة من البنين والبنات لأسرة فقيرة، في قرية "التنومة"، إحدى نواحي شط العرب في البصرة وعاش فيها مرحلة الطفولة، قبل أن تنتقِل أسرته، وهو في مرحلة الصبا، لتقيم عبر النهر في محلّة الأصمعي» (غنيم، ١٩٩٨: ٤٩). «وكان للتنومة تأثير واضح في نفسه، فهي تنضح بساطة ورقّة وطيبة، مطرّزة بالأنهار والجداول والبساتين، وبيوت الطين والقصب، وأشجار النخيل الّتي لا تكتفي بالإحاطة بالقرية، بل تقتحم بيوتها. وكثرة البساتين والأشجار يجعل منظرها خلّاباً يثير إعجاب الناظرين» (غنيم، ١٩٩٨: ٥٢). «ترعرع أحمد مطر في أحضانِ الفقر والحرمان، الّذين يكابدهما سكان المدينة إضافة إلى اضطهاد النّظام المستبدّ في كلّ شؤون الحكم. فتأثّر بتلك العناصر الطبيعية الّتي تثير الإعجاب، كما أخذت سطوة الحكم من روحه ومشاعره كما نراه بوضوح في نغماتهِ الشعرية» (غنيم، ١٩٩٨: ٥٤).

«بدأ مطر بإنشاد الشعر مبكرا فِي السّن الرابع عشر ولم تخرج قصائده الأولى عن نطاق الغزل والرومانسية لكن سرعان ما تكشّفت له خفايا الصراع بين السلطة والشعب فألقى بنفسهِ في فترة مبكرة من عمره في دائرة النّار، فدخل المعترك السياسي خلال مشاركته في الاحتفالات العامة بإلقاء قصائده وكانت تتمحور حول موقف المواطن من سُلطة لا تتركه ليعيش» (عايش، ٢٠٠٦: ٩).

القسوة والتعذيب ومرارة الواقع والصراع بين السلطة والشعب كان دافعاً لنظمه الشعر السياسي ووقوفه موقفاً جرئياً بوجه السلطة الحاكمة. ولم يكن لمثل هذا الموقف أن يمرّ بسلام، ما اضطَرّ الشاعر في النّهاية إلى توديع وطنه ومرابع صباه والتوجّه إلى الكويت، هارباً من مطاردة السلطة وهكذا عُرِف احمد مطر بشاعر المنفى منذ باكورة حياته، فلقد حرمته قصائده لذّة الوطن، وحرمته الحياة في مسقط رأسه منذ وقت مبكرمن عمره وفَضّلَ ـ خلافاً للكثير من الشّعراء ـ أن يركب سفينة المقهورين والمضطهدين على أن يسير في موكب الأمراء وأصحاب السلطان.

«وفي الكويت عمل في جريدة "القبس" محرّراً ثقافياً وكان آنذاك في منتصف العشرينيات من عمره، حيث مضى يدوّن قصائده التي أخذ نفسه بالشدّة من أجل ألّا تتعدى موضوعاً واحداً وإن جاءت القصيدة كلّها في بيت واحد. فكانت "القبس" الثغرة الّتي أخرج منها رأسه، وباركت انطلا قته الشعرية الانتحارية. وسَجّلت لافتاته من دون خوف، وساهمت في نشرها بين القرّاء» (عايش، ٢٠٠٦: ٩-١٠).

«وفي رحاب "القبس" عمل الشاعر مع الفنان الفلسطيني ناجي العلي، ليجد كلّ منها في الآخر توافقاً نفسياً واضحاً، فقد كان كلاهما يعرف غيباً أن الآخر يكره ما يكره ويحِبُّ ما يحبّ، الروابط بينهما كانت تقوم على الصّدق والعفوية والبراءة وحدّة الشعور بالمأساة ورؤية الأشياء بعين مجدّدة صافية، بعيدة عن مزالق الايديولوجية. وقد كان أحمد مطر يبدأ الصحيفة بلافتة في الصفحة الأولى وكان ناجي العلي يختمها بلوحته الكاريكاتيرية في الصفحةِ الأخيرة» (عايش، ٢٠٠٦: ١٧).

لقد شكلَ أحمد مطر صوتاً شعرياً متميزاً، انتشرت اشعاره بين الجماهير بمجرد بزوغها حيث بدا واضحاً أنّ الشاعر يمتلك مميزات خاصّة، جعلت منه صوتاً شعرّياً بارزاً فهو يكتب القصيدة القائمة على المفارقة الساخرة، وعلى الوضوح الّذي لا غموض فيه. قد كتبَ قصائداً وسَمّاها "اللافتات" معتبراً أنّها "صوت التمّرد" ولها نفس مواصفات "اللافتة" الّتي

يرفعها المتظاهرون من حيث الايجاز والسهولة والموقف المجدّد والهدف التحريضي. وعُرِف احمد مطر بأنّه "شاعر المنفى" و"شاعر الحرية" و"شاعر انتحاريّ" إنَّ لافتات مطر سهلة الفهم ولا توجدُ المفرداتُ الغريبة فيها، يستأنس بها القارئ حتى وإن كان حديث النشأة والعهد بالأدب العربيّ وتحمل اشعارها في طياتها أروع المعاني وتستوقف الذهن اللبيب.

ملامح السخرية عند أحمد مطر

السخرية عند أحمد مطر تختلف كثيراً عن السخرية عند شعراء العرب، لأنه لا يسخر شخصاً أو قوماً من أجل الأغراض الشخصية أو الحزبية أوتيار دون تيار بل نجد غالبية سخريته في مجال الشعر السياسي الهادف، يحمل قضايا حرمت من حقها وسلّط عليها حكام لا ينتمون إليها ويتحدث عن قضية إنسان سلّطت عليه ألوان العذاب والظلم والقساوة كما يقول:

إنني لست لحزبٍ.. أو جماعة../ إنني لست لتيارٍ.. شعاراً../ أو لدكانٍ.. بضاعة../ إنني الموجة.. تعلو حرةً/ ما بين بين../ وتقضي نحبها دوماً/ لكي تروى رمال الضفتّين../ وأنا.. الغيمة للأرض جميعاً../ وأنا.. الريح المشاعة../ غير أني.. في زمان الفرز/ أنحاز.. إلى الفوز/ فإن خيرت ما بين اثنتين../ أن أغني مترفاً.. عند يزيد/ أو أصلي جائعاً.. خلف الحسين/ سأصلي.. جائعا.. خلف الحسين/ .../ لست أهتم.. بمن كان معي../ أو كان.. ضدي../ لست أهتم بمن.. أترك بعدي../ لست أهتم.. بمن يبكي دموعاً../ أو بمن.. يبكي.. دماء../ ليس عندي.. غير همٍ واحدٍ../ أن أسبق الموت إلى العيش/ فأغدوا من ضحايا كربلاء (المجموعة الشعرية: ١٢٤)

وهذه الميزة « جعلت منه صوتا شعريا بارزاً، فهو يكتب القصيدة القصيرة القائمة على المفارقة الساخرة، وعلى الوضوح الذي لاغموض فيه وكأنّه يسلك من خلال ذلك مسلكاً شعرياً له دلالاته في عالم الشعر الحر المعاصر الذي يطغى عليه النكوص إلى الغموض والإيجاز في محيطات الرمز» (غنيم، ١٩٩٨: ٧).

«وتبدو نفسية أحمد مطر من خلال شعره مفعمة بالحزن والأسى، لكنّه بطبيعته الساخرة يمزج السخرية بالحزن، وهو يرى أن سخريته غير مستغربة، ذلك أنه من خلال استقرائه لواقع شرائح المجتمع وجد أن من يحسنون السخرية والإضحاك هم أكثر الناس امتلاءً بالحزن» (غنيم، ١٩٩٨: ٤٣). وفي هذه العجالة لا يمكننا أن نفي هذا الشاعر حقّه وكيف ذلك وقد اتّخذ السخرية أسلوباً في معظم قصائده.

أحمد مطر يلجأ إلى توظيف السخرية في أدبه

أحمد مطر شاعر المنفى الذي عصفت به رياح الطغاة وحاولت الدكتاتوريات المتعاقبة أن تطمس صورته وتكمم صوته، ولكنه ظل سيفا مشهرا على كل نظام فاسد في كل أرجاء الوطن العربي، فلازالت الحريات تستصرخه، وتستنجد به حقوق الإنسان البائس في كل بلاد العرب، إنه صوت الإنسان الكادح والمواطن المثقل بأعباء المواطنة، إنه صوت الحرية في كل أرض وفي كل زمان، الحرية التي هي مطلب الإنسان في كل موطن وأوان «فالدفاع عن النفس حق مشروع، والحرص على الحياة نزوع إنساني طبيعي، والرغبة في امتلاك الحرية والتمكن من ناصية الأحداث لازمة من لوازم الحياة التي ظل الإنسان يدافع عنها، ويحرص على الاحتفاظ بها، ويبدي كل الأساليب التي تجيز له الوصول إليها» (حمودي القيسي، ١٩٨١: ٧).

عندما يقوم المفكر العربي بالتأمل والتفكير مطولا في الواقع الذي يعيش فيه المواطن العربي بأحداثه ووقائعه المؤسفة، فإنه لا يملك إلا أن يشعر بالغصة في حلقه ناهيك عن الغضب الشديد المتولد عن عدم قدرته على تغيير هذا الواقع، فلا يجد بداً من اللجوء إلى السخرية الناقدة واللاذعة من هذا الواقع، والتي تعمل على التخفيف من حدة ألامهوالسخرية لكونها فن راقٍ يحتاج إلى الذكاء والفكر وأعمال العقل كما ذكرنا آنفا، لذلك فهي سلاح خطير في يد الفلاسفة والكتّاب بوجه السياسات الظالمة المستبدة المتحكمة بمصائر الشعوب، كما أنهم يستخدمونها في نقد العادات والتقاليد البالية في المجتمع وأمراضه الكثيرة من جهل وتخلف ونفاق.

وهذا ما فعله الشاعر أحمد مطر في شعره حيث استوعب تجارب حياته المناهضة للأنظمة الدكتاتورية القائمة على الظلم والقهر والاستبداد، وقد تولى أمر مهاجمتها بخطاباته النقدية اللاذعة المملؤة سخرية وازدراء وفق آليات جعلها تخدم أغراضه وموضوعاته التي فضح بها أبعاد التفكير واستراتيجيات السياسة لدى الحكام الذين زرعوا الرعب في قلوب شعوبهم بالملاحقة والتربص والظلم والقهر والقتل وتبديل الأمن بالخوف دون وجه حق، وقد اتخذ الشاعر أسلوبا متميزا في السخرية من أولئك الساسة وزبانيتهم الذين كانوا يد البطش التي يبطشون بها. وبذلك اتخذ أحمد مطر من السخرية أداة له للنقد اللاذع والاضحاك وأحيانا النصح مما جعل السخرية طاغية على شعره، فاقترن اسمه بها، فغدا أحمد مطر شاعر ساخر من طراز خاص فهو في شعره الساخر يحمل قضية إنسانية عامة بأبعادها المختلفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية يعاني منها الشعب بمختلف طبقاته في ظل سلطة حاكمة

غاشمة جردته من مقوماته الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحرمته من ممارسة كل ما لديه من تقاليد وأعراف. وهو يعرض هذه المشاكل بأسلوب ساخر يبلغ حد الحزن، عرضا يصدق عليه القول: إن الساخرين هم أشد الناس حزنا، محاولا أن يسلط الضوء عليها ملتمسا الحلول لكثير من المشاكل التي يعرضها في شعره. فلم يكن شاعراً ساخرا بقصد اللهو والعبث والإضحاك وإملاء الفراغ، بل كان جادا في شعره. إن هذا الأسلوب يختلف عن أساليب الشعراء الساخرين الذين عرفناهم في العصور الأدبية الماضية.

إن الشاعر قد تناول الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، لكنّ قسماً كبيراً من شعر الساخر تطرق إلى الحكام الظالمين وقضية فلسطين المحتلة وتعذيب وجور يتعرض له العربي في البلدان العربية من الخليج إلى المحيط. الشاعر في سخرياته يدخل بجرأة مذهلة ولسان لا يعرف المحاباة ولم يسلك مسلك الوعظ والإرشاد بل إنه ناقد ساخر، سخر من السياسة الجائرة التي قد تفتّحت عينا أحمد مطر على العالم ونشير فيما يلي إلى بعض موضوعات:

نماذج من السخرية في شعر أحمد مطر

قد تطرق أحمد مطر في شعره إلى موضوعات مختلفة ونظر إليها نظرةً ساخرةً وينقد عيوب المجتمع العربي نقداً لاذعاً وفيما يلي نشير إلى عدةٍ منها:

السخرية من الحكام العربية

سخر أحمد مطر الحكام العربية لجهلم وقسوتهم ونعتهم نعوتا نشمّ منها رائحة السخرية اللاذعة.فقد كتب الشاعر عشرات القصائد واللافتات الشعرية التي انتقد فيها الأنظمة العربية بشكل عام، فلا انتخابات حرّة نزيهة ولا للشعب دخل في تقرير مصيره ولا أمل في الخلاص من سلطة الطواغيت التي تكون لهم أدوات القمع من قتل وسجن وإعدام، ويرى الشاعر الحل قتل جميع الحكام والروساء ويتوجه بخطابه اللاذع إلى الحكام العرب الذين خضعوا للأجنبي وأصبحوا ينفذون أوامره فإنّ الحلّ الذي يقدّمه الشاعر لمعضلة هؤلاء الحكام هو العنف والثورة والوقوف في وجههم؛ لأنّهم لا يعترفون بغير ذلك لتغيير واقعهم المتردي:

أنا لوكنت رئيسا عربيا/ لحللت المشكلة/ وأرحت الشعب مما أشعلة/ أنا لوكنت رئيسا/ لدعوت الروسا/ ولألقيت خطابا موجزا/ عما يعاني شعبنا منه/ وعن سر العناء/ ولقاطعت جميع الأسئلة/ وقرأت البسلمة/ وعليهم وعلى نفسي قذفت القنبلة (المجموعة الشعرية: ٨٤)

مطر يعتقد أنّ الحاكم في البلاد العربية يعبد كما يعبد الله، المواطن يشاهد صورته في كل مكان ويسمع في الإذاعة صوته ويرى في التلفاز صورته، الحاكم مالك كلّ مقدّرات البلد وهو يفعل ما يشاء ويدبّر الأمور كما يريد:

صُورة الحاكم في كلّ اتّجَاه/ باسِمٌ/ في بَلدٍ يبكي مِنَ القهرِ بُكاه!/ مُشرِقٌ/ في بَلَدٍ تلهو الليالي في ضُحاه!/ ناعِمٌ/ في بَلَدٍ حَتّى بَلاياهُ/ بِأنواعِ البلايا مُبتلاه!/ صادِحٌ/ في بَلَدٍ مُعتَقلِ الصَّوتِ/ ومنزوعِ الشِّفاه! سالِمٌ/ في بَلَدٍ يعدَمُّ فيه النـاسُ/ بالآلاف، يوميّاً،/ بِدَعَوَى الإشتباه/ صورةُ الحاكم في كلّ اتّجاه/ نعمةٌ مِنهُ علينا/ إذ نَرى، حينَ نَراه، أنَّهُ لَمّا يزَل حَياً/ وَما زِلنا عَلى قَيدِ الحَياه! (المجموعه الشعرية: ٣٢٧)

وفي شعر آخر يخاطب الحاكم ويجري حواراً مع الحاكم في الرويـاء ويسـأل أأنت خلقتنـا أو هل جعلك الله إلهاً وهل الشعب انتخبك أو هل وهبك الوطن كهدية وفي الأخير يرجع إلى وعيه، يقال له في بيتك حلماً خائناً، يقول:

قُلتُ لِلحاكم: هل أنتَ الّذي أنجَبتَنا؟/ قالَ: لا... لَستُ أنا./ قُلتُ: هَل صَيرك اللهُ إلَهاً فَوقَنا؟/ قَالَ: حاشَا رَبَّنا./ قُلتُ: هَل نَحنُ طَلَبنا مِنك أن تَحكمَنـا؟/ قَـال: كلّا./ قُلتُ: هَل كانَت لَنـا عَشـرةُ أوطانٍ/ وَفيهـا وَطَنٌ مستَعملٌ زَادَ عَلى حاجَتِنـا/ فَوَهَبنـا لَـك هـذا الوَطَنـا؟/ قَـالَ: لَـم يحـدُث... ولا أحسَبُ هـذا مُمكنِـا./ قُلتُ هَـل أقرَضتَنا شيئاً/ عَلى أن تَخسِفَ الأرضَ بِنا/ إن لَم نُسَدِّد دَينَنا؟/ قَالَ: كلّا./ قُلتُ: مَا دُمتَ، إذَن، لَستَ إلهاً أو أباً/ أو حَاكماً مُنتَخَباً/ أو مالِكاً/ أو دائِناً/ فلِماذا لِم تَزَل، يا ابنَ الكذا، تَركبُنَا؟/ ... وانتهى الحُلمُ هُنا./ أيقَظَتني طُرُقاتٌ فوقَ بابي:/ إفتَحِ البابَ لَنا/ إنَّ في بيتِك حُلماً خائناً! (المجموعة الشعرية: ٢٠٩)

السخرية من فقدان حرية التعبير في البلاد العربية

الموضوع المحوري لدى أحمد مطر هو النضال للحرية، كتب عن الحرية التي لم تتحقق إلا بقوة السلاح، إنّ همّه الأول والآخر هو الحرية التي صودرت من قبل السلطة ففي هذه الأجواء يفقد الشعب كل شيء من حرية رأيه أمام الحكام الجائرين الذين لا يسمحون لأحدٍ أن يبدي عن موقفه تجاه ما يجري في البلاد، ويعتقد أن المواطن في الوطن العربي كأنّه ميت، وإذا قام بعمل أو ألقى حكمة يتّهم بالإرهاب والتخريب أو الطعن في القوانين الإلهية وهذا كله يدلّ على فقدان الحرية:

أريدُ الصَّمتَ كي أحيا/ ولكنَّ الّذي ألقاهُ ينطِقُني./ وَلا ألقي سِوى حُزنٍ/ عَلى حُزنٍ/ عَلى حُزنٍ/ أأكتُبُ "أنّني حيٌّ"/ عَلى كفَني؟/ أأكتُبُ "أنَّني حُرٌّ"/ وَحَتّى

الحرفُ يرسِفُ بِالعُبُوديه؟/ لَقَد شَيعتُ فاتِنَةً/ تُسَمّى في بِلاد العُربِ تَخريباً/ وَارهاباً/ وطعناً في القوانين الإلهية/ ولكنَّ اسمَها واللهِ/ لكنَّ اسمَها في الأصلِ/ ... حُرّيه! (المجموعة الشعرية: ٣٣)

يقول أحمد مطر عن المجتمع العربي حين يموت الناقد السياسي تقوم الحكومة بتشييعه لكن هذا العمل ليس بمعنى إكرامه على يد الحكومة بل الحكام مع قدرة طاغية يحيطونه حتى في التابوت ويصوّر الشاعر بشكلٍ دراميٍ إنّ الحريةَ مسلوبةٌ حتى في لحظة موته وتشييعه إلى المقبرةِ:

حين أموت/ وتقوم بتأبيتي السطة/ يشيع جثماني الشرطة/ لا تحسب أنّ الطاغوت/ قد كرّمني/ بل حاصرني بالجبروت/ وتتبعني حتى آخر نقطة/ كي لا أشعر أنّي حرّ/ حتى وأنا في التابوت (المجموعة الشعرية: ١٢٠)

وفي قصيدة أخرى يشير الشاعر إلى انعدام التفاهم وحرية الرأي بين الحاكم والشعب. فأوامر الحاكم لا تقبل التفكير أو النقاش ومن يفعل ذلك يلق القتل والهوان بينما المواطن في البلاد الغربية يستطيع أن يسأل المسؤولين مايريد وعلى المسؤول الإجابة على أسئلة المواطنين دون خوف أو قلق:

عَلاقتي بِحاكمي/ ليسَ لَها نظير/ تَبدأ ثُمَّ تنتهي... بِراحةِ الضّمير./ مُتّفِقان دائماً، لكنَّنا/ لَو وَقَع الخِلافُ فيما بَينَنا/ نَحسِمُهُ في جَدَلٍ قَصير/ أنا أقولُ كلمَةً/ وهو يقولُ كلمةً/ وَإنَّهُ مِن بَعدِ أن يقولَها... يسير/ وإنّني مِن بَعدِ أن أقولَها... أسير! (المجموعة الشعرية: ١٤٥)

السخرية من تقاعس العرب تجاه القضية الفلسطينية

لقد ظن بعض من كتبوا عن أحمد مطر أنه من شعراء فلسطين؛ وذلك لاهتمامه البالغ بقضيتها، فما يحمله لها من فكروحماس لا يقل عما يحمله أخلص شعراء فلسطين. من هنا كانت علاقته بهذه القضية علاقة توحد لا انفصام لها وانعكس في شعره الساخر.شكلت القضية الفلسطينية محوراً بارزاً في شعره، فقد عالجها في مواضع كثيرة ومن زوايا مختلفة وفضلاً عن تحديد أسباب النكبة أشار في اكثر من مرة إلى الآفاق التي يمكن من خلالها إعادة الوطن السليب، ويحمّل الحكام العرب مسؤولية ضياع فلسطين لأنهم لم يحرّكوا ساكناً ويعتذر أحمد مطر نيابة عن الإنسان العربي المكبّل بالأصفاد من قبل الأنظمة العربية الخائنة ويحمّل الحكام العرب مسوولية ماأصابت فلسطين وشعبها:

يا قدس معذرة ومثلي ليس يعتذرُ/ مالي يد في ما جرى فالأمر ما أمروا/ وأنا ضعيفٌ ليس لي أثرُ/ عار عليَّ السمع والبصرُ/ وأنا بسيف الحرف انتحرُ/ وأنا اللهيب.. وقادتي المطرُ/ فمتى سأستعرُ؟! (المجموعة الشعرية: ٢٧)

فلسطين عند أحمد مطر، هي الرمز وقد تَغَنّى بها وراحَ يطلق الكلمات ويعَبِّر عن مدى عمق الجراح هناك. وأنَّ فلسطين باقية ومازال النزال مستمرّاً رغم أنّ حكام العرب يبدو أنّهم قد نسوا فلسطين، فهم مشغولون على هَزِّ القناني وعلى هزّ البطون ولكن وإن مَرّ زمَنٌ على هذه القضية لكنّ الشرفاء سيعيدون الأرض المغتصبة للوطن الحبيب:

هَرِمِ الناس وكانوا يرضعون/ عند ما قَال المُغَنِّي: عائدون./ يا فلسطينُ ومازال المُغَنّي يتَغَنّى/ وَملايين اللحون/ في فَضاء الجُرحِ تَفنَى/ واليتامى... مِن يتامى يولَدُون./ يا فلسطينُ وأربابُ النِّضالِ المُدمِنون/ ساءَ هُم ما يشهَدون/ فَمَضوا يستنكرُون/ وَيخُوضُونَ النِّضالات/ عَلى هَزِّ القَناني وعَلى هَزِّ البُطُون!/ عائِدون/ وَلَقَد عَادَ الأسَى لِلمّرةِ الألفِ فَلا عُدنا.../ وَلا هُم يحزَنون! (المجموعة الشعرية: ٢٠)

السخرية من الجواسيس والمخبرين في البلاد العربية

يصف الشاعر المجتمع العربي بأنّه غصٌّ بالمخبرين وإنّهم موجودون في كل مكان حتى لا يشعر الإنسان العربي بأدنى حرية في حياته وهذا الامر جعل المجتمع كسجنٍ كبيرٍ يصوّر الشاعر الصراع بين السلطة وأجهزتها القمعية بأسلوب ساخر:

غصّ ما تحت السماوات وفوق الأرضين/ بعيونٍ مخبرين/ كل إنسان لدينا تهمة تمشي/ ويمشي معها ألف كمين/ نصفنا في داخل السجن/ ونصف خارج السجن سجين/ لم نعد نملك ما نبديه من أصواتنا/ حتى الأنين/ لم نعد نملك ما نخفيه في أعماقنا/ حتى الحنين/ ضاقت الدنيا على الدنيا/ وضيعنا الجهات الأربعين... (المجموعة الشعرية: ١٤٨-١٤٩)

ينتقد الشاعر بشدةٍ اساليب القمع والمخابرات والمنظمات الامنية حتى تصل الحالة بالمواطن أنّه يشعر بغربةٍ ما بعدها غربة حتى يخالَ المواطن كل من حوله مخبرين يعملون للسلطة حتى إذا يريد المواطن أن يبحث عن بيت صديقه يجد المخبرين في الشارع وفي كل مكان ويسميه "أمير المخبرين" ويدعو للحاكم ساخراً؛ لأنّه يحرس بلاد المسلمين بآلاف الجواسيس والمخبرين:

«تِهتُ عَن بَيتِ صَديقي/ فَسألتُ العابرين/ قِيلَ لي: إمشِ يساراً/ سَترى خلفَك بعضَ المُخبرين/ حُد لَدى أوَّلِهم/ سَوفَ تُلاقِي مُخبِراً/ يعمَلُ في نَصبِ كمين./

إتَّجِه لِلمُخبِرِ البَادِي أمامَ المُخبِرِ الكامِنِ وَاحسِب سَبعَةً... ثُمَّ تَوَقَّف/ تَجِد البيتَ وراءَ المُخبِرِ الثَّامِنِ/ في أقصَى اليمين!/ حَفِظَ اللّهُ أميرَ المُخبِرين/ فَلَقَد أتخَمَ بالأمنِ بِلادَ المسلمين./ أيها النَّاسُ اطمَئِنُّوا/ هذِهِ أبوَابُكم محروسَةٌ في كلِّ حِين/ فَادخُلُوها بِسلامٍ... آمنين!» (المجموعة الشعرية: ٤٢-٤١)

وليرسم الشاعر الجو الأمني الذي يظل كالغيم على الوطن العربي يكرر كلمة "المخبر" وفي سخرية أخرى يصور المجتمع مملوءاً من كثرة المخبرين ويقول:

مُخبِرٌ يسكنُ جَنبي/ مُخبِرٌ يلهُو بِجَيبِي/ مُخبِرٌ ينبُشُ قَلبي/ مُخبِرٌ يدرُسُ جِلدِي/ مُخبِرٌ يقرأ ثوبي/ مُخبِرٌ خَارِج أكلِي/ مُخبِرٌ داخِلَ شُربي/ مُخبِرٌ يرصُدُ بَيتي/ مُخبِرٌ يكنُسُ دَربِي/ مُخبِرٌ في مَخبِرٍ... (المجموعة الشعرية: ٢٥٧)

السخرية من الشعوب العربية

لا يعتقد احمد مطر أنّ الحكومات وحدها الّتي تتحمّل مسؤولية حالة الضّعف العربي، بل يحمل الشعوب والأفراد المسؤولية ذاتها. وهو يردّد دائماً القول أنّ فرعون لن يقول "أنا ربّكم الأعلى" إلّا إذا رأى حوله عبيداً يطيعونه حين يضلّهم. الشعوب لم تقم بدورها المطلوب وإنّما تردّد ما يريده الحكام واكتفت بالأقوال من دون الأفعال وهكذا يحرّضالشاعر الشعوب ويدعوها إلى التخلّص من حكامها الظالمين.

إذا الضحايا سئِلَت/ بِأيّ ذنبٍ قُتِلَت/ لأ نتفضَت أشلاؤها وجَلجَلَت: بذنبِ شعبِ مخلصٍ/ لِقائدٍ عميل!! (المجموعة الشعرية: ٥٨)

يعتقد أحمد مطر التعايش مع الناس وتحمل الظلم أشدُّ من الإعدام ويعتقد أن المواطن في الوطن العربي لو أعدم أخفّ وأسهل من الحياة في هذا الوطن ويقول:

الإعدامُ أخَفُّ عِقابٍ يتَلَقَّاهُ اَلفَردُ العَرَبِيّ/ أهُنالِك أقسَى مِن هَذا؟ طَبعاً.../ الأقسَى مِن هذا/ أن يحيا في الوَطَنِ العَربي! (المجموعة الشعرية: ٢٥٤)

يرى الشاعر المجتمع قد جاوز الحدّ في ذلته وتحمله للامتهان ولا سبيل لإصلاحه سوى أن تنبتَ الارضُ خلقاً آخر لأنّ المجتمع لو كان سليماً لكفاه نبيٌّ واحدٌ لاصلاحه يوجّه نقده وسخريته الّتي تعبّر عن ألم الشاعر لما يلحق هذه الأمة من ظلم بسبب صمت الشعوب والمفكرين والمثقفين في أرض كانت مهبط الأنبياء ورجال كبار واستبدلوا الكبريا بالذل:

فصيحنا ببغاء،/ قوينا مومياء،/ ذكينا يشمت فيه الغباء،/ ووضعنا يضحك منه البكاء،/ تسممت أنفاسنا/ حتى نسينا الهواء،/ وامتزج الخزي بنا/ حتى كرهنا

الحياء،/ يا أرضنا.. يامهبط الأنبياء،/ قد كان يكفي واحد/ لو لم نكن أغبياء؛/ يا أرضنا/ ضاع رجاء الرجاء،/ فينا ومات الإباء،/ يا أرضنا، لا تطلبي من ذلنا كبرياء،/ قومي احبلي ثانية/ وكشفي عن رجل/ لهؤلاء النساء (المجموعة الشعرية: ٣١)

السخرية من الشعراء

أحمد مطر شاعر لا يشبه شعراء عصره ولا ينتمي إليهم الشعراء الذين ينشغلون بالحب والغزل ولا يعتنون بما يجري في المجتمع العربي من الظلم والكبت وينتقد الشعراء الذين لا يشاركون الشعب همومه وتطلعاته. تشمل سخرية أحمد مطر الشعراء الذين ينشغلون عن قضايا أمتهم بقضاياهم الخاصة ومن بينها الحب والغزل ويلعن الشاعر الذي يغازل الشفاه والنهدين وشَعر الحبيبة بقوله:

كفرتُ بالأقلام والدفاترْ./ كفرتُ بالفصحى التي/ تحبل وهي عاقرْ./ كفرتُ بالشعر الذي/ لا يوقفُ الظلمَ ولا يحرّك الضمائرْ/ لعنتُ كلَّ كلمةٍ/ لم تنطلق من بعدها مسيرةٌ./ لعنتُ كل شاعرْ/ ينام فوق الجمل النديّةِ الوثيرهْ/ وشعبه ينام في المقابرْ/ لعنتُ كل شاعرْ/ يستلهم الدمعة خمراً/ والأسى صبابةً/ والموت قشعريرةً/ لعنت كل شاعرْ/ يغازل الشفاه والأثداء والضفائرْ/ في زمن الكلاب والمخافرْ/ ولا يرى فوهةَ بندقيةٍ/ حين يرى الشفاه مستجيرهْ!/ ولا يرى رمانةً ناسفةً/ حين يرى الأثداء مستديرهْ!/ ولا يرى مشنقةً/ حين يرى الضفيره!/ .../ في زمن الآتين للحكم/ على دبابةٍ أجيرهْ/ أو ناقة العشيرهْ/ لعنت كلَّ شاعرٍ/ لا يقتني قنبلةً/ كي يكتب القصيدة الأخيرهْ! (المجموعة الشعرية: ٥٤)

يعتبر أحمد مطر الشاعر الحقيقي هو الذي تعرّض نفسه للموت؛ لأنّه يعتقدُ أنّه جعل صدره دفتراً وكتب شعره عليه بالسيف وإنّه يرى الشاعر الذي يكتب عن واقعية المجتمع كالذي ينتحر بخنجر الكلام:

سبعون طعنة هنا موصولة النزفِ/ تبدي ولا تخفي/ تغتال خوف الموت بالخوفِ/ سمّيتها قصائدي/ وسّمها يا قارئي: حتفي!/ وسّمني منتحراً بخنجر الحرفِ/ لأنني في زمن الزيفِ/ والعيش بالمزمار والدفِ/ كشفت صدري دفتراً/ وفوقه كتبت هذا الشعر بالسيف (المجموعة الشعرية: ١٢)

كما ينتقد باسلوب لاذع وسائل الإعلام في الدول العربية لأنها وجدت لكي تخدم الحكام والصحفي لايستطيع أن يقول ويكتب عن واقع المجتمع العربي ومصائب الشعب وآلامه وإنّما يمدح الحاكم في كل يوم:

صحيفةٌ.../ عليها سطور كثيفةٌ/ وفيها سطور كثيفةٌ/ وفيها خطوط.. وفيها صور/ تروح وتأتي بنفس الخبرْ/ يعيش الخليفةُ.. يحيا الخليفةْ! (المجموعة الشعرية: ٤٢٢)

وكانت رسالة الشاعر لديه أن يلتزم جانب الدفاع عن أبناء شعبه يصور معاناته وما لحقه من أذى بسبب شعره بأسلوب لاذع ويؤكد على دور القلم في تغيير الواقع يؤكد أحمد مطر على دور القلم في تغيير الواقع والأديب والناقد الملتزم ليس بإمكانه أن يسكت أمام ما يجري في بلاده وما يتعرّض شعبه من قمع وظلم وفساد و... لذلك يعتقد أنّ إلتزامه بشعبه يسبّب السجن والقتل في آخر المطاف ويقول:

جسّ الطبيب خافقي/ وقال لي:/ هل هاهنا الألمْ؟/ قلت له: نعمْ/ فشق بالمشرط جيب معطفي/ وأخرج القلمْ!/ هز الطبيب رأسه.. ومال وأبتسمْ/ وقال لي:/ ليس سوى قلم/ فقلت: لا يا سيدي/ هذا يد... وفم/ رصاصة... ودم/ وتهمة سافرة... تمشي بلا قدم (المجموعة الشعرية: ٢٠)

ثم يوجه نقدا مرّاً وقاسيا إلى الشعراء الذين يهادنون السلطان. رسالة الشاعر لدى أحمد مطر الالتزام بالدفاع عن أبناء شعبه وتصور معاناته وما لحقه من أذى بأسلوب لاذع ويعتقد أنّ مصير الشاعر الحقيقي هو الاستشهاد كما أستشهد عدد منهم في هذا الطريق بقوله:

لا نامت أعين الجبناءْ!/ ورأيت مئات الشعراءْ/ تحت حذائي/ ووجوه يسكنها الخزي/ على استحياءِ/ في زمن الأحياء الموتى/ على استحياءِ/ في زمن الأحياء الموتى./ تنقلب الأكفان دفاتر/ والأكباد محابرْ./ والشعر يسد الأبواب/ فلا شعراء سوى الشهداءْ! (المجموعة الشعرية: ٣٤)

ويسخر من الشعراء الذين يمجدون السلاطين بشعرهم مقابل بعض الأموال والنياشين الزائفة ويعلل سكوت بعض الشعراء عن قول كلمة الحق. الشاعر إما يأخذ الصلة ويسكت وإمّا يرفض كلامه إذا لم يكتم أسرار النظام الحاكم بقوله:

يا ناس إني صامتٌ/ وأحمد الله إذا لم اعتقلْ/ بتهمه الكتمان/ فالشاعر الشريف في أوطاننا/ يُدانُ أو يُدانْ!/ يا سادتي.../ تلك هي القضيةْ (المجموعة الشعرية: ١٠٥)

ويصور معاناته وينتقد السلطات التي تكبّل الثقافة بالرقابة يقول مخاطباً الرقيب بأسلوب فني ساخر:

أين نمضي/ أنت لا تفهم شعري؟/ ما الغريبُ/ أنا لا أفهمه أيضاً/ ولكن/ ينبغي أن أتحاشى/ كل ما يؤذي الرقيبْ (المجموعة الشعرية: ٢٢٥)

النتائج

تتجلى في قصائد أحمد مطر الكبرياء الإنسانية التي يراها أرفع من كل ظالم وأعظم من كل سلطة، فهو يريد أن يعيد للإنسان قيمته الحقيقية التي أنزل بها، ويدعو ـ دائما ـ إلى الثورة على الظلم والاستبداد والتسلط، وقد قصر كل حياته وشعره على الدفاع عن حق الإنسان في الوطن العربي، ولم يتجه إلى الفنون الشعرية الخالصة، إذ لم يكن من اليسير عليه الاتجاه إلى الحب والغزل ووصف الطبيعة الساحرة التي لا يكون للسياسة أو النظام سلطان عليها، لأنه كان أقرب إلى معاناة الناس وهموم الفقراء. فهموم الشاعر هي هموم الوطن. تمثّل السخرية لدى الشاعر براعة ولعبة ذكية لا يجيد استخدامها إلّا الأذكياء المبدعون، لذا فإنّ براعته في السخرية شكلت حقيقة تميزه عن غيره من شعراء العربية المعاصرين؛ لأنّ الشاعر وَظَّفَها بوعي خدمة لبناء نص عربي جديد حتّى أنّ السخرية شكلت طابعاً مميزا لأعماله الشعرية وصارت علامة يمكن أن يتلمسها القارئ لشعره وميزته هذه العلامة عن أقرانه من الشعراء العرب المعاصرين. فأهم ما توصل إليه البحث كالتالي:

١. السخريةُ طريقةٌ تعبيريةٌ يتوسل بها الشعراء لنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية وهي أسلوبٌ يختلف عن الشتيمة والسباب المحض.
٢. السخرية عند أحمد مطر ليست للتسلية أو للهو والضحك وإنّما هي سخريةٌ هادفةً هدفها الدفاع عن شعبٍ محروم ومضطهد وتحريض الشعوب على القيام بوجه السلطات الجائرة.
٣. لشعر أحمد مطر مميزٌ خاص، لونه وموضوعه سياسي اجتماعي لا يشمل الغزل وغيره بل يعرض كلما يرتبط بانعدام الحرية وظلم الحكام للشعوب العربية.
٤. يحرك الشاعر الضمائر بسبب جديته وثوريته وحماسيته فشعره ليس عاطفياً بل يخلو منه.
٥. أحمد مطر يعرض في شعره الوطن العربي كأنّه وطن واحد ولا يختص ببلدٍ دون بلد وقضيته قضية الإنسان العربي، بل قضيةٌ إنسانية لا عراقيٌ فحسب.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. ابن أبي سلمى، زهير (١٩٦٤م). *ديوان ابن أبي سلمى*. بيروت: دار الصادر.

٢. ابن منظور (١٩٨٨م). *لسان العرب*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٣. الأخطل (١٩٩٥م). *ديوان الأخطل*. شرح مجيد طراد، بيروت: دار الجيل.

٤. بدوي، مصطفى (١٩٦٩). *مختارات من الشعر العربي الحديث*. بيروت: دار النهار للنشر.

٥. بكري، حامد (١٩٨٨). الحكاية الساخرة في أدب أحمد مطر. *مجلة الأحداث*، لندن.

٦. البياتي، عبد الوهاب (١٩٩٥). *الأعمال الشعرية*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٧. التميمي، قحطان رشيد (دون تا). *اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري*. بيروت: دار المسيرة.

٨. جاسم الحسين، أحمد (١٩٩٧م). *القصة القصيرة جداً*. دمشق: منشورات دار عكرمة.

٩. جميل صليبيا (١٩٧٨م). *المعجم الفلسفي*. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

١٠. الحوفي، أحمد (٢٠٠٥م). *الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها*. القاهرة: مكتبة النهضة.

١١. حمودي القيسي، نوري (١٩٨١م). *شعر الحرب عند العرب*. بغداد: منشورات دار الجاحظ.

١٢. السطوحي، سها عبد الستار (٢٠٠٧). *السخرية في الأدب العربي الحديث*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٣. طالبي قره قشلاقي، جمال؛ ايرواني زاده، عبد الغني؛ شاملي، نصرالله (١٤٣٤هـ). *دراسة الهجو الساخر السياسي وأساليبه في شعر دعبل*. مجلة اللغة العربية وآدابها، فرديس قم، العدد ١٥، صص٧٣-٩٤.

١٤. طه، نعمان محمد أمين (١٩٧٨). *السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري*. القاهرة: دار التوفقية للطباعة.

١٥. عايش، محمد (٢٠٠٦). *أحمد مطر شاعر المنفى*. بيروت: دار اليوسف.

١٦. عبدالعال، حافظ كوزي (٢٠١٣). *التوظيف القرآني في شعر أحمد مطر*. مجلة آداب الكوفة، العدد ١٣.

١٧. عبدالغفور، عبدالحميد (١٩٨٩). *الالتزام في شعر أحمد مطر*. مجلة الاصلاح الثقافي.

١٨. عيدان، انتصار جويدان (٢٠١٢). *المفارقة في شعر أحمد مطر*. مجلة كلية اللغات بغداد، العدد ٢٤.

١٩. غنيم، كمال أحمد (١٩٩٨م). *عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر*. القاهرة: مكتبة مدبولي.

٢٠. قباني، نزار (١٩٩٣). *الأعمال الكاملة*. بيروت: منشورات نزار قباني.

٢١. الكعبي، أحمد صبيح (٢٠١٢م). *مجلة جامعة كربلاء العلمية*. المجلد العاشر، العدد ١.

٢٢. محمد جمعة، نجوي (٢٠١٣). *أساليب السرد القصصي ووسائله في شعر أحمد مطر*. مجلة دراسات البصرة، العدد ١٦.

٢٣. مطر، أحمد (٢٠١١م). *المجموعة الشعرية*. بيروت: دار الحرية.

٢٤. النويهي، محمد (١٩٦٩م). *ثقافة الناقد الأدبي*. بيروت: دار الفكر.

٢٥. الهندي، عبدالرفيع (١٩٩٣م). *العملية الإبداعية من منظور تأويلي لأحمد مطر*. مجلة المنعطف، العدد ٤.